مجلة انساق
للنشر العلمى

مجلة انساق للنشر العلمى

الإصدار الثانى
المجلد (٢) العدد (٢)
(١- ١١) ٢٠٢٦

من الرحلة إلى الأثنوغرافيا: الوعي الثقافي في أدب الرحالة المسلمين

د/ جاسم حسن جابر الموسوي
(مشرف تربوي أقدم أول/ المديرية العامة لتربية ذي قار/العراق)
تاريخ النشر: نُشر إلكترونياً بتاريخ ٢٠ أبريل ٢٠٢٦ م

الملخص :

تنطلق هذه الورقة من سؤال مركزي: كيف يمكن قراءة النصوص الرحلية الإسلامية الكلاسيكية بوصفها وثائق أثنوغرافية تاريخية، تكشف عن وعي ثقافي متقدم سبق التأسيس الأكاديمي الغربي للأنثروبولوجيا بقرون؟، نحن هنا أمام إشكالية منهجية تتعلق بطبيعة المعرفة المنتجة في رحلات ابن فضلان (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) والمقدسي (ت بعد ٣٨٠هـ/٩٩٠م) وابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، التي تتراوح بين السرد الذاتي والتوثيق الموضوعي. تعتمد الدراسة منهجية تحليلية تفكيكية، تتعامل مع النصوص الرحلية كحقول معرفية تتقاطع فيها الذات الباحثة مع الموضوع المدروس، مما يخلق توتراً إبداعياً بين المرجعية العقدية الثابتة والنسبية الثقافية المتحركة. وتكشف الدراسة أن الرحالة المسلمين مارسوا شكلاً عملياً من "الأنثروبولوجيا التطبيقية" عبر آليات ثلاث: الملاحظة بالمشاركة، والتفسير الوظيفي للعادات، والمقارنة الثقافية البينية.

الكلمات المفتاحية :

(أثنوغرافيا تاريخية، أنثروبولوجيا إسلامية مبكرة، الرحالة المسلمون، التمثيل الثقافي، حوار الحضارات)

Abstract:

This study investigates how classical Islamic travel narratives can be reinterpreted as historical ethnographic documents that reflect an advanced form of cultural awareness. It addresses the methodological problem of extracting implicit scientific structures from texts produced by travelers such as Ibn Fadlan, Al-Muqaddasi, and Ibn Battuta. Adopting a deconstructive analytical approach, the study examines travel writing as a knowledge field shaped by the interaction between the observing self and the observed other. It argues that Muslim travelers practiced an early form of applied anthropology through participant observation, functional interpretation of customs, and cross-cultural comparison. The

research highlights the epistemological depth of these narratives, revealing a dynamic tension between fixed religious frameworks and evolving cultural realities. It further demonstrates that these texts constitute a unique archive for understanding historical societies. By repositioning Islamic travel literature within the domain of historical ethnography, the study contributes to rethinking the origins of social sciences beyond Western-centric narratives.

Keywords:

(Historical Ethnography, Early Islamic Anthropology, Muslim Travelers, Cultural Representation, Cross-Cultural Analysis, Travel Literature, Epistemology, History of Social Sciences)

المقدمة :

١. إشكالية الدراسة: البحث عن المنهج المضمر

لا يزال أدب الرحلة الإســـلامي حبيس القراءة الأدبية والجغرافية التقليدية، رغم احتوائه على رؤية أنثروبولوجية متقدمة، تكمن الإشكالية من وجة نظر الباحث في كيفية استخلاص "المنهج العلمي المضمر" من ثنايا السرد الرحلي، وتحويل هذه النصوص من "مصادر تاريخية" إلى "وثائق أثنوغرافية" قادرة على تفسير النسق الثقافي للمجتمعات الموصوفة، يتساءل البحث: كيف استطاع الرحالة المسلمون إدارة مسافة موضوعية بين ذواتهم المؤمنة والمجتمعات المغايرة؟ وما آليات التمثيل الثقافي التي اعتمدوها في نقل صورة "الآخر"؟

على الرغم من تنامي الاهتمام المعاصـر بأدب الرحلة الإسـلامي، إلا أن معظم الدراسـات السـابقة انحصـرت في مقاربات أدبية أو جغرافية أو تاريخية وصفية، دون النفاذ إلى البنية المنهجية العميقة التي تحكم إنتاج المعرفة في هذه النصـــوص. كما أن القراءات الأنثروبولوجية — عندما حضـــرت— جاءت غالباً إســـقاطية، تســـتعير مفاهيم الأنثروبولوجيا الغربية الحديثة وتفرضها على النصوص التراثية دون مساءلة سياقية.

٢. الفجوة البحثية:

وتكمن الفجوة البحثية تحديداً في غياب دراسة منهجية تكشف عن الأنساق الابستمولوجية المضمرة في أدب الرحلة الإسلامي، بوصفه ممارسة معرفية أصيلة، لا مجرد مادة خام للقراءة الحديثة. كما أن هناك نقصاً واضحاً في تحليل

آليات إنتاج "الوعي الثقافي" لدى الرحالة المسلمين، خاصة في ما يتعلق بإدارة التوتر بين المرجعية العقدية والنسبية الثقافية.

٣. فرضية البحث

ينطلق البحث من فرضية مركزية مفادها: أن أدب الرحلة الإسلامي يتضمن بنية منهجية تماثل الممارسات الأثنوغرافية الحديثة، حيث مارس الرحالة المسلمون شكلاً مبكراً من الأنثروبولوجيا التطبيقية ضمن إطار مرجعي إسلامي خاص.

ويتفرع عنها:

- وجود وعي نقدي ضمني لدى الرحالة بحدود تمثيلهم الثقافي.
- أن التوتر بين الثابت العقدي والنسبية الثقافية كان محفزاً للإنتاج المعرفي.
- إمكانية إعادة تصنيف هذه النصوص ضمن تاريخ العلوم الاجتماعية.

٤. أهداف البحث:

يسعى البحث إلى:

- الكشف عن البنية المنهجية المضمرة في النصوص الرحلية.
- إعادة تأطير أدب الرحلة ضمن الأثنوغرافيا التاريخية.
- تحليل تمثيل "الآخر" ثقافياً.
- إبراز إسهام الرحالة المسلمين في الوعي الثقافي المقارن.
- تفكيك العلاقة بين الذات والموضوع.
- المساهمة في إعادة كتابة تاريخ العلوم الاجتماعية.

٥. **الدراسات السابقة:**

يمكن تصنيفها إلى:

أولاً: الدراسات الأدبية والتاريخية

ركزت على الرحلة كجنس أدبي، مثل أعمال التازي والخطيب، دون تحليل منهجي عميق.

ثانياً: الدراسات الأنثروبولوجية

مثل(Dunn 1986) و(Euben2006)، وقدمت مقاربات مقارنة لكنها بقيت ضمن أطر غربية.

ثالثاً: الدراسات النقدية

المتأثرة بإدوارد سعيد، والتي ركزت على تمثيل الآخر ضمن علاقات القوة.

٦. موقع البحث:

يتميز هذا البحث بتركيزه على استخراج المنهج الداخلي للنصوص، لا إسقاط نظريات خارجية عليها.

٧. **الأهمية المعرفية: إعادة كتابة تاريخ الأفكار**

تتجلى أهمية هذا البحث في كونه:

· محاولة لسد فجوة في تاريخ العلوم الاجتماعية، بإثبات وجود تقليد أنثروبولوجي عربي إسلامي مبكر.

· إعادة الاعتبار للعقل الرحلي المسلم كمنتج للمعرفة الإنسانية، لا مجرد ناقل سلبي.

· تقديم نموذج لقراءة التراث النصي الإسلامي قراءةً عابرة للتخصصات.

٨. **الإطار المنهجي: نحو هرمنيوطيقا الرحلة**

تعتمد الدراسة منهجية ثلاثية الأبعاد:

١. التحليل التفكيكي للنص الرحلي، بوصفه خطاباً ثقافياً يحمل إشكاليات التمثيل والسلطة.

٢. المقارنة البينية بين النموذج الرحلي الإسلامي ونظيره الأوروبي الوسيط (مثل ماركو بولو).

٣. المنهج الوصفي التحليلي في رصد السمات الأنثروبولوجية وتطورها عبر الرحلات المختلفة.

المبحث الأول

تشريح البنية المنهجية للرحلة الأثنوغرافية

١,١ الإشكالية اللغوية وعقدة الوساطة الترجمية

يواجه الباحث في النصوص الرحلية إشكالية منهجية أساسية تتعلق بـ"الوساطة اللغوية". فابن بطوطة - على سبيل المثال - اعتمد في رحلته التي امتدت ٢٧ عاماً على شبكة معقدة من المترجمين، الفقهاء المهاجرين، والتجار الوسطاء، هذه "المصفاة اللغوية" تطرح سؤالاً جوهرياً عن مدى دقة التمثيل الثقافي في النص الرحلي.

ولكن المفارقة أن الرحالة أدركوا هذه الإشكالية وحاولوا تجاوزها عبر آليات متعددة. فابن جبير (٥٧٤هـ/١١٧٨م) يصف وقوفه في عرفات وصفاً لا يعتمد على المشاهدة فحسب، بل على "المعايشة الروحية" التي تخترق الحواجز اللغوية: "وشهدنا من ذلك العَرض ما يجل عن الوصف... ووقفنا بتلك المشاهد وقوف المطلع العالم بأحوالها" (ابن جبير، ١٤٠٦هـ، ص. ١٨٥). هنا نجد تحولاً من "الوصف الخارجي" إلى "الفهم الداخلي"، وهو ما يشبه في الأنثروبولوجيا المعاصرة الانتقال من "الملاحظة البسيطة" إلى "الملاحظة بالمشاركة العميقة".

١,٢ التفسير الوظيفي: من الحكم الأخلاقي إلى الفهم السياقي

تتجلى عبقرية الوعي الثقافي الرحلي في قدرته على تفسير العادات الغريبة ضمن سياقها الوظيفي، لا ضمن إطار الحكم الأخلاقي المسبق. فعندما يصف ابن بطوطة عادة أهل المالديف في استخدام أعشاب البحر للباس، لا يكتفي بالإشارة إلى غرابتها، بل يقدم تفسيراً بيئياً واقتصادياً متكاملاً: "وليس عندهم قطن

ولا كَتَّان، لأن أرضهم لا تنبته... فلذلك يلبسون هذا النوع من الأعشاب" (ابن بطوطة، ١٤١٧هـ، ج٤، ص. ٢٠٤).

هذا النمط من التفسير يعكس تطوراً منهجياً مهماً، حيث يصبح الرحالة أقرب إلى "الأثنوغرافي الوظيفي" الذي يبحث عن العلة الاجتماعية للظواهر الثقافية. بل إننا نجد لدى المقدسي محاولة مبكرة لتصنيف المجتمعات وفق معايير ثقافية مقارنة، حيث يضع في "أحسن التقاسيم" جدولاً تحليلياً يقارن فيه بين الأقاليم الإسلامية وفق معايير ثابتة تشمل: النظام القضائي، العادات التجارية، الأنماط المعيشية، مما يشبه في العلوم الاجتماعية المعاصرة "المقاربة النسقية".

المبحث الثاني

النماذج التطبيقية: مقاربات في التمثيل الثقافي

٢,١ ابن فضلان: سيكولوجيا الجسد وطقوس الموت

تشكل "رسالة ابن فضلان" نموذجاً فريداً للأثنوغرافيا التفاعلية العميقة. فعندما يصف طقوس دفن زعيم الروس (الفايكنج)، لا يقدم مجرد وصف خارجي، بل يغوص في السيكولوجيا الجمعية للمشهد. لاحظ كيف يربط بين الممارسة الطقسية والبنية الاجتماعية:

"ولما كان اليوم الذي يحرقون فيه الميتة وفتاتها، ذهبت إلى النهر الذي عليه مركبه... فإذا بالسفينة قد أُخرجت إلى البر... وأتوا بالجارية فرفعوها ثلاث مرات... ثم قدموا دجاجة فقطعوا رأسها وطرحوها، ثم قدموا الجارية فقتلوها" (ابن فضلان، ١٤١٩هـ، ص. ١٥٤-١٥٥).

هذا الوصف لا يكتفي بالتسجيل، بل يحلل دلالات الرموز الطقسية: التكرار ثلاث مرات، التضحية الحيوانية ثم البشرية، كلها عناصر تشير إلى نظام عقائدي متكامل. الأهم أن ابن فضلان يسجل ردود أفعاله النفسية كمراقب مشارك: "ورأيت أمراً عظيماً فغشي عليّ" (نفس المصدر، ص. ١٥٦)، مما يجعل النص وثيقة مزدوجة: تصف "الآخر" وتكشف عن "الذات" في لحظة الصدمة الثقافية.

٢,٢ ابن بطوطة مقابل ماركو بولو: صراع الرؤى واختلاف المنطلقات

تكشف المقارنة بين الرحالتين عن اختلاف جوهري في الرؤية الثقافية. فبولو (التاجر البندقي) ينظر إلى الصين من خلال عدسة المنفعة الاقتصادية، مركزاً على الثروة والتجارة والفخامة. بينما ينظر ابن بطوطة (القاضي الفقيه) من خلال عدسة النسق الاجتماعي، مهتماً بآليات الضبط الاجتماعي، نظام العدالة، والتماسك المجتمعي.

عندما يصف ابن بطوطة النظام القضائي في الهند، فإنه لا يذكر فقط وجود القضاة، بل يحلل كيفية اشتغال النظام: "وللسلطان قضاة من كل مذهب... وهم لا يتعصبون لمذاهبهم في الحكم" (ابن بطوطة، ١٤١٧هـ، ج٣، ص. ١١٢). هذه الملاحظة تعكس وعياً مؤسساتياً متقدماً، يجعل الرحالة أقرب إلى "المحلل السياسي" منه إلى "السائح".

٢,٣ المقدسي: الجغرافيا الثقافية المقارنة

يقدم المقدسي في "أحسن التقاسيم" نموذجاً للبحث المنهجي المنظم. فقد وضع معايير مقارنة ثابتة، تشمل عشر سمات ثقافية لكل إقليم: اللغة، العمران، التجارة، الأخلاق، العادات، المذهب الفقهي، النظام السياسي، الأمن، الغلاء والرخاء، وعلاقة السكان بالسلطة (المقدسي، ١٤١١هـ، ص. ٤٥-٥٠). هذا النهج النظامي يجعل من المقدسي رائداً في "الجغرافيا الثقافية المقارنة"، حيث يصبح الكتاب أشبه بـ"أطلس أنثروبولوجي" للعالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري.

المبحث الثالث

النقد الذاتي: حدود الرؤية وإشكاليات التمثيل

٣,١ المركزية المذهبية وتأثيرها على التمثيل الثقافي

رغم التقدم المنهجي، بقيت النصوص الرحلية أسيرة "المركزية المذهبية". فابن جبير - وهو فقيه مالكي - يقيس المجتمعات التي يزورها بمقياس "السنة" كما يفهمها، فيصف بعض الممارسات في العراق بأنها "بدع مذمومة وخوارم للشرع" (ابن جبير، ١٤٠٦هـ، ص. ٢٤٣). هذه "الفلترة المذهبية" تخلق تمثيلاً انتقائياً للواقع، حيث يتم تضخيم ما يتعارض مع المذهب، وتهميش ما يتوافق معه.

٣,٢ إشكالية الصوت الغائب وتهميش الفئات المهمشة

من الإشكاليات الكبرى في النصوص الرحلية "غياب صوت العامة". فالرحالة يركزون على النخب: الحكام، العلماء، التجار الكبار. أما صوت الفلاحين، الحرفيين، النساء (في معظم الحالات)، فغالباً ما يكون غائباً أو هامشياً. حتى ابن بطوطة الذي أولى النساء اهتماماً نسبياً، كان يصفهن غالباً من خلال أدوارهن التقليدية، لا كفاعلات اجتماعيات مستقلات.

٣,٣ تحريف النص وتدخل المحررين

تشكل عملية التحقيق والنشر الحديثة إشكالية منهجية إضافية. فـ"تحفة النظار" لابن بطوطة دوّنها ابن جزي بناءً على الرواية الشفهية، مما يطرح أسئلة حول دقة النقل ومدى تدخل المحرر في صياغة النص. كما أن طبعات النصوص الحديثة تختلف في قراءاتها وتحقيقاتها، مما يستدعي من الباحث المعاصر "النقد النصي" قبل "التحليل الثقافي".

الخاتمة والاستنتاجات

توصلت الدراسة إلى جملة من الاستنتاجات التي تعيد تعريف أدب الرحلة الإسلامي:

١. ريادة منهجية: مارس الرحالة المسلمون شكلاً متقدماً من البحث الأثنوغرافي، اعتمد على الملاحظة المباشرة، المقارنة الثقافية، والتفسير الوظيفي، متقدمين بقرون على التأسيس الأكاديمي الغربي للأنثروبولوجيا.

٢. وعي ثقافي مركب: تميزت النصوص الرحلية بوعي ثقافي مزدوج: فهي تصف "الآخر" وتكشف في الوقت ذاته عن آليات اشتغال "الذات" المسلمة في تعاملها مع الاختلاف.

٣. أرشيف بشري فريد: تشكل هذه الرحلات أرشيفاً لا يعوض للتاريخ الاجتماعي والثقافي لشعوب كثيرة، خاصة تلك التي لم تترك سجلات مكتوبة خاصة بها.

٤. توتر إبداعي خلاق: تعكس النصوص توتراً منتجاً بين "المرجعية الثابتة" (الدينية، المذهبية) و"النسبية المتحركة" (الملاحظة الميدانية)، وهو توتر أنتج معرفة ثرية بالتنوع البشري.

حدود الدراسة:

١. اعتمدت الدراسة على نماذج مختارة من أدب الرحلة، وليس الحصر الكامل.

٢. صعوبة الفصل بين "صوت الرحالة" و"صوت المحرر" في بعض النصوص.

٣. محدودية المقارنة مع التقليد الرحلي غير الإسلامي لضيق المساحة

التوصيات

١. مشروع تحقيق نقدي: إعادة تحقيق النصوص الرحلية الرئيسية مع هوامش تحليلية من منظور أنثروبولوجي، تكشف البنية المنهجية المضمرة.

٢. أطلس رقمي تفاعلي: إنشاء منصة رقمية تربط بين المواقع الجغرافية التي زارها الرحالة والوصف الثقافي الذي قدموه، مع إمكانية المقارنة بين رؤى الرحالة المختلفين لنفس المجتمع.

٣. مقرر أكاديمي متخصص: تصميم مقرر جامعي بعنوان "الأنثروبولوجيا في التراث الإسلامي: قراءة في أدب الرحلة" يدمج بين الدراسة النظرية والتحليل التطبيقي.

٤. مشروع مقارن حضاري: دراسة مقارنة بين التقليد الرحلي الإسلامي والتقليد الصيني (مثل رحلات تشنغ خه) والبوذي (مثل رحلات هيوان تسانغ) لتحديد الخصائص المشتركة والمنفردة لكل تقليد.

٥. توظيف في الحوار الحضاري: استخدام النماذج الرحلية الإسلامية كأدلة تاريخية على قدرة الحضارة الإسلامية على التفاعل الإيجابي مع التنوع الثقافي، ونماذج للتعايش الحضاري.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية

· ابن بطوطة، محمد بن عبد الله. (١٤١٧هـ). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (تحقيق: د. عبد الهادي التازي). الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.

· ابن جبير، محمد بن أحمد. (١٤٠٦هـ). رحلة ابن جبير. بيروت: دار صادر.

· ابن فضلان، أحمد بن عباس. (١٤١٩هـ). رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة (تحقيق: د. سامي الدهان). القاهرة: دار المعارف.

· المقدسي، شمس الدين محمد بن أحمد. (١٤١١هـ). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (تحقيق: د. محمد مخزوم). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ثانياً: المراجع العربية

· التازي، عبد الهادي. (١٤٢٠هـ). الرحلة في الأدب الإسلامي: دراسة في المنهج والرؤية. الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية.

· الخطيب، عز الدين. (١٤٢٦هـ). الآخر في مرآة الرحلة العربية الإسلامية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.

· الزركلي، خير الدين. (١٤٢٢هـ). الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين.

· سعيد، إدوارد. (١٤١٦هـ). الاستشراق (ترجمة: كمال أبو ديب). بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

· Dunn, R. E. (1986). The Adventures of Ibn Battuta: A Muslim Traveler of the 14th Century. Berkeley: University of California Press.

· Euben, R. L. (2006). Journeys to the Other Shore: Muslim and Western Travelers in Search of Knowledge. Princeton: Princeton University Press.

· Netton, I. R. (Ed.). (1996). Golden Roads: Migration, Pilgrimage and Travel in Medieval and Modern Islam. Richmond: Curzon Press.

· Polo, M. (1958). The Travels of Marco Polo (Trans. R. Latham). London: Penguin Books.